

ظماً للمعرفة لا يرتوي

الكاتب



حسن مدن

في عبارات موجزات، عرض طه حسين خصال شخصيته التي يقول إنها كوَّنت مذهبها في الحياة، وتلك الخصال هي: ظماً إلى المعرفة لا سبيل إلى تهدئته، وصبر على المكروه ومغالبة الأحداث، وطموح إلى اقتحام المصاعب في غير حساب للعواقب، وجهر بما يراه الحق مهما عرض له ذلك من الخطوب، ثم شعور كأقوى ما يكون الشعور بالتضامن الاجتماعي يجعله يُحبّ للناس من الخير ما يحبه لنفسه.

جاء ذلك في مقال قصير كتبه العميد نفسه عن مذهبها في الحياة، لخص فيه، بأبرع وأبلغ وأدقّ العبارات، رؤيته لذاته، والمقال نشره العميد في حياته في مجلة «الهلal»، وأعادته المجلة نشره في العدد الخاص الذي كرّسته للذكرى الخمسين لوفاته التي مرّت مؤخراً، ورغم أنه قيل وكُتب الكثير عن حياة وأدب وفكر وسيرة طه حسين، وهو نفسه كتب سيرته في «الأيام»، لكنه اختار أن يقول لنا ذلك في ما قلّ ودل.

في الشرح قال العميد، إن خصلة الظماً الشديد إلى المعرفة صحبته منذ الصبا، وهو ظماً لا يطفئه اكتساب العلم، وإنما يزيده قوّة وشدّة، فأبي نصيب يناله من المعرفة، يغريه بأن على أبعده منه أشدّ عمقاً، «فحاجة من ذاق المعرفة أشدّ الحاجات إلحاحاً وأعظمها إغراءً، بالتزويد منها والإمعان فيها».

الخصلة الثانية هي الصبر والمغالبة واحتمال المكروه ما وسعه احتمالها، قائلاً إنه صبر وصابر واحتمل من ألوان المشقة في الأزهر ما رضي عنه وما سخط عليه، ولكنه ظلّ مدفوعاً إلى شيء من المغامرة لم يكن يدفع إليها أمثاله في تلك الأيام.

حصلنا الشغف بالمعرفة والصبر على الشدائد حملتا العميد على عبور البحر يوماً إلى أوروبا طالباً للعلم هناك، هو الذي طالما سأل نفسه: «كيف السبيل لمثلي إلى عبور البحر وطلب العلم غريباً في تلك البلاد التي لا أعرف من أمرها شيئاً»، خاصة أنه لم يكن ذا حظّ قليل أو كثير من الثراء، ولكنه فعلها: عبر البحر وجدّ في الدرس وتعلّم لغة أوروبية ووصل إلى النتيجة التي لم تخطر لأسرته ولا لبيئته، ويعود إلى مصر لا ليجلس في حلقة من حلقات الأزهر كما كانت

أسرته تتمنى، ولكن ليكون أستاذاً في الجامعة، ومشاركاً في الحياة العامة، «وكانت ثقيلة في تلك الأيام: صراع بين مصر والإنجليز وبين الأحزاب المصرية نفسها».

خصلة أخرى في شخصيته تحدث عنها العميد: «الصراحة والجره بالحق والنضال في سبيله مهما يثقل ومهما تكن عواقبه، ورأيتني أخاصم في السياسة وفي الإصلاح الاجتماعي وفي تجديد العقل المصري وتغيير منهجه في البحث والدرس». أليس المثقف موقفاً؟

madanbahrain@gmail.com

"حقوق النشر محفوظة" لصحيفة الخليج. © 2024.